رب إقليم الفلاندر

[هذا المقال كتب خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » كتبه الأديب الفرنسى هنرى كاليه وهو من طليعة كتاب فرنسا الآن اشتهر اسمه عند ما نشر مؤلفه فى ذكريات الطفولة سنة ١٩٣٦ ثم زاد اقبال الجمهور على مؤلفاته الأخرى وهو من الأدباء الذين يشتركون فى تحرير مجلة النضال *Combat* الفرنسية] .

اهتزت « مِين » مضطربة وتقلبت على فراشها الخشن ثم قالت فى صوت خافت :

— لقد أخذنى النوم مرة أخرى .

بدأت تثوب إلى رشدها ومدت ذراعها نحو المكان الخالى بجانبها فى السرير ، مكان زوجها ، فعادت تتبيّن بوضوح الحال الذى كانت فيه وتدرك شيئاً فشيئاً إدراكاً دقيقاً المأساة التى كانا يخضعان لها .

وصدرت منها أنة ألم :

— آه . . . آه . . .

وكانت تجسّ الملاءة القفشة تُمرّر يدها عليها .

— إنه ليس هنا . لقد قام . وهذه مرة أخرى لم أسمعه فيها . إنه عاد إليها . . .

عاهدت مِين نفسها على أن تبقى مستيقظة ، ودقت الساعة الثامنة فى الكنيسة ، بعيدة الصوت على أنها فى هذه الأيام الأخيرة كثيراً ما كان النعاس يغالبها بالرغم منها . ولا بد أن يكون الذى أيقظها صوت صادر من الحاصل حيث لا يزال موجوداً معها . وكانت مِين تسمع كل شىء فسألت :

— هل تقدم الليل الآن فأصبح حالك السواد ؟

وعبثاً كانت تحدّق بنظر ما فى الجو الذى يحيط بها ، وهى تهز رأسها ولا تقف عن فرك الملاءة وكأنها تريد أن تكويها ، تفركها دائماً فى البقعة نفسها حيث ضوء

المغرب ما زال يترك شعاعاً ورديًّا فى المكان الخالى . وكانت تنادى متجهه بصوتها إلى فوق :

— ستاف ! أين أنت يا ستاف ؟

كانت تعلم مِين أنه لن يجيب . وهو مع ذلك كان يسمعها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يجيب . فكانت تكرر نداءها بصوت نائح ، لنفسها ، فى الظلمات التى كانت هى فيها :

— ستاف أين أنت ؟ أين أنت يا ستاف ؟

وصارت يدها أيضاً وردية اللون على أثر حركتها المتصلة ، كأنها تريد أن تزداد استيثاقاً من الفراغ الذى بجوارها . هو لا بد ملازم مكانه ، ولا يتحرك فيه ، لا يجرؤ أن يخطو خطوة ، وسيبقى على هذه الحال من السكون آملا أن تعود إلى نومها . ولكن الضريرة لن تعود إلى النوم .

وأخذت تهمهم :

— فى الساعة الثامنة لا يزال قليل من الشمس باقياً .

وقبل ذلك كانت الشمس فى شهر يوليو هذا توشك أن تغادر المنزل حوالى الساعة الثامنة . قبل ذلك ، عند ما كانت ترى كل شىء بعينيها ، ترى النور ، وحتى الظلام نفسه كانت تراه إذ ذاك . ولم يكن هذا الظلام الجامد العابس الذى يحيط بها الآن كأنه حائط ، بل كان ظلاماً ليناً رخواً يمكن النفوذ إليه . ثم كانت هذه الشمس تنغمس فى الماء نحو مصب النهر . وفى الساعة الثامنة كانت بالضبط على الصورة المقدسة فوق الكانون . ومنذ ذلك الوقت لا يمكن أن يكون شىء قد تغير .

لماذا لم يردّ ستاف ؟

« ربما كان لم يزد على أن ذهب ليعدّ برميل السارادين . لا ! إنهما ما زالا فوق معاً . إنى واثقة . وسأصيح الآن فيسمعاننى »

جلست على السرير فبدت نحيلة بيضاء فى قميصها المشدود عند عنقها وكأنها رافعة رأسها وموجهة نحو السقف جفونها الدامية . وكانت تصيح :

— ستاف ! أنا أسمعك ياستاف . وأنت تسمعنى ، إنك لا تزال معها . إنزل ! أتركها يا ستاف ! وأنت يا ابنة السوء مُريه ينزل ! اطرديه عنك . لن يأذن الله بأن تستمر مثل هذه الفضيحة هنا . . .

كانت مِين تلجأ إلى التوسل :

— . . . لست وحدى . فأنتما تنصتان إلىّ من مكانكما . أنا أعلم ذلك . إنكما تسمعانى . أجيبانى . . . لشد ما كنت أتمنى ألاّ أولد حتى لا أرى الآن . لا يمكن أن تستمر هذه الحال أكثر من ذلك . ألا تستخذيان ؟

كانا لا يجيبان شيئاً . ومِين تواصل نداءها ، وذراعاها ممدودتان إلى جانبى جسمها ، ويداها منقبضتان على الكرب الذى بها .

— ألا تسمعانى ؟ أتسمعنى يا ستاف ؟ دع ابنتنا لورا هادئه فى سريرها . ألم أعد بعد امرأة لك يا ستاف ؟ لأنى أصبحت لا أرى الآن ؟ إنى لم أستحق ما بليت به من محنة . أنا أيضاً من مخلوقات الله . وأعلمُ أنكما تُنصتان إلىّ وأنكما خائفان . . . يا لله ! ماذا نحن صانعون الآن . . . هى حامل ، نعم ، وأنت السبب أيها اللعين ! لقد تبينتُ ذلك جيداً بيدى هذا المساء . ظننتما أنى لن أعرف شيئاً ، نعم ظننتما ذلك وقلتما فى نفسكما : « إن مين لا تبصر » . أنا لا أبصر ، ولكنى مع ذلك أعرف كل شىء . ماذا سيقول أهل القرية ؟ سيقولون : يا للعار لقد مضى الأب مع ابنته .

وبقيت أثناء صمتها معتدلة القامة ، تتجه بعينيها فى نوم إلى ما فوق .

— ما كان ينبغى لك أن تمسها يا ستاف ! إن جسمها كان محرما عليك . ما كان يجوز لك أن تراه . . . ماذا تعملان الآن وقد أصبحت حاملا منك ؟ يجب أن تلقيا بنفسيكما فى الماء أيها المجرمان ! . . . أيها المجرمان ! . . .

وسكتت مين فجأة وكان باب الحاصل يفتح فى احتياط ، إنما لم يصل الاحتياط إلى حد أنها لم تسمع صريف المفصلات .

— إنى أسمع باب الحاصل . كنت لا تزال معها أيها اللعين ! كنت معها .

وكان ستاف ينزل السلم الخشبى ببطء ، والخشب يقرقع تحت عبئه .

— إنى أسمع الخشب يقرقع .

— كان يقترب دون أن يستطيع منع رجليه العاريتين من سحق الرمل الأبيض . وهذا كانت تسمعه جيداً ، وعظام أصابع رجليه كانت تقرقع أيضاً . وحتى نفَسه كانت قد عرفته .

— ستاف أنت هنا . ! أجبنى .

وأخيراً قال الرجل فى صوت أجشّ :

— أمجنونة أنت حتى تصيحى على هذا النحو ، لقد كنت فى المنزل الصغير .

— ليس صحيحاً أنت كاذب ، كنت مع ابنتنا لورا فى الحاصل .

أجاب الرجل وهو يصعد فى السرير :

— ليس صحيحاً .

وفى اللحظة التى كان يمر فوقها للوصول إلى السرير قبضت مين بكلتا يديها على أحد ساقيه ، بكل قواها . أخيراً كانت تمسك بشىء غير الظل .

قال الرجل :

— ماذا يا مين ؟ اتركينى ! أنت تؤلمينى يا لعنة الله !

— نعم ، نعم ! كل الليالى الآن منذ مهرجان القرية الكبير . تذهب معها . هى ابنتنا يا ستاف . إنك نسيت ذلك .

— اتركى رجلى

ولكنها كانت تتشبث بها . فتخلص منها بدفعة وارتدت مين على الوسادة . استلقى الرجل فى مكانه بجانبها ، وأخذت مين تئن شاكية بصوت خافت .

— نعم ، نعم ، ابنتنا حامل . لقد أحسست ذلك هذا المساء .

فنهرها الرجل :

— إنك مجنونة ! لقد ذهبت أعدّ برميل السردين . لقد آن لنا أن ننام . كُفِّى عن ثرثرتك بعض الشىء يا مين .

على ذلك كان ينوى الكذب للنهاية . لكن مين ما فتئت تلح . مدّت ذراعها فصادفت فخذ رجلها الصلب . وقالت فى رفق :

— ستاف إنى أريد أن أعرف ماذا تعمل الآن . الوساوس تنخر قلبك طول الوقت ، فى الليل وفى النهار .

— نامى .

سحبت يدها .

— هل أمسى الليل حالك السواد يا ستاف ؟

لم يعد ستاف يجيب .

— أنا أعرف أنك لست نائماً ، ولكنك تدّعى النوم .

لماذا سجنها الله فى هذا السواد المبئس ؟ لماذا هى دون غيرها ؟ لِمَ هذا العقاب ؟ ألم تكن إحدى مخلوقاته ؟ ألم يكن لها الحق فى التمتع بالنور مثل غيرها ؟

لماذا ؟ ومع ذلك لم تكن تستطيع بعدُ أن تعتمد على غير الله ليهديها وليسندها .

— يا ربى ! يا إلهى !

ما الداعى إلى أن يتجه الإنسان إلى نفسه بهذه الأسئلة ؟ وكان الليل ينزل شيئاً فشيئاً دون أن يأتى بطراوة فى منزلهم ، أو فى منازل القرية ، أو فى السهل أو على الماء . وكان الليل الآن أسود حالكا بالقياس إلى جميع الناس . ومين لاتزال تبكى فى صمت . على أنها كانت تستطيع الآن أن تنام إلى جانب رجلها ، على حين هو على فراش الألم سيظل مستيقظاً مدة طويلة وعيناه مفتوحتان تنظران إلى جريمته . وكانت مين تعلم حق العلم أن الوسواس ينخر قلبه .

فتح باب الحاصل مرة أخرى .

فسأل الرجل :

— ما ذا ؟ ما الذى حدث ؟ أأنت يالورا ؟ أين تذهبين الآن ؟

وكانت أرجل حافية تدب على بلاط الغرفة .

صاحت مين :

— ما هذا ؟ ما هذا ياستاف ؟ أأنت يالورا ؟ إنى أعرف خطوتك ، أنت تجرين . . . إلى أين تذهبين فى الليل ؟

كان الرجل قد قفز من السرير :

— لورا !

قالت الفتاة :

— لا تمسسنى !

— أين تذهبين يالورا ؟

كانت مين تصيح وهى تهزّ ذراعيها أمامها عسى أن تشق هذا الحائط الأسود :

— لورا ! لورا ! ما ذا تعملُ يا ستاف ؟ أنا أيضاً أريد أن أقوم .

قالت الفتاة :

— الوداع يا أمى . سأذهب فأغرق نفسى عند السدّ . وأغلقت الباب من ورائها .

صاح الرجل وقد توقف وهو يرتدى ملابسه :

— إلزمى مكانك ! تعالى هنا يا لورا ! انتظرى فأنا ذاهب معك . . .

— ستاف أنا نائمة . أعطنى ملابسى .

— إبق أنت نائمة .

غادرها بعد أن تحدّث إليها حديثاً خشناً . وكان يصيح فى الشارع :

— أنا ذاهب معك يا لورا !

— يا لله ! يمضى ويتركنى وحدى

انزلقت من السرير حتى وصلت الأرض . وتقدمت ويداها مبسوطتان إلى الأمام تضطربان من التأثر . فأدركت ملابسها على الكرسى ووجدتها مرصوصة مثلما وضعتها عند ما عاونتها لورا على ذلك . ولكنها التبست عليها . فكانت تجس القطع واحدةً بعد الأخرى فى حركة مترددة كمن لا يستقر على اختيار سلعة لشرائها .

— يا إلهى ! ثوبى !

سقط الكرسى واضطرت مين إلى أن تجثو على ركبتيها . وكانت تتوسل إلى الله قائلة :

— ثوبى ! يا إلهى أمدنى بعونك ! ابنتى لورا ستغرق ! هذا عقابى . صحت بها أن تلقى بنفسها فى الماء ، ولكنى لم أفكر أن عليها أن تعمل ذلك . كنت فى حالة غضب . فأنت تعلم يا إلهى ! يا ربى ! أنى تكلمت دون أن أعقل .

لبست مين فى اضطراب وبأسرع ما أمكنها ، وكان يخيل إليها أنها تقضى الساعات فى اللبس . . . وأخذت عصاها فى ركن الحائط ، وغطت رأسها بالشال وخرجت بدورها ، تصطدم بالكرسى أولا ، ثم بالمنضدة . . .

وكان طريق السد مألوفاً لها . وكانت تسير بخطًى سريعة ، تتكئ بإحدى يديها على عصاها ، وبالأخرى تحرك الفضاء كأنها تجذب نفسها بحبل خفى يهديها إلى الطريق المستقيم .

— ستا ـ اف ! لورا ـ ا !

وكانت الروائح تقودها أكثر من تذكرها للأمكنة : الرائحة الحامضة المنبعثة من مصنع السماد الصناعى ، رائحة المستنقع ، الرائحة الخضراء لأشجار الرتم . ثم يجب أن تمر أمام شجرة البلوط الصغيرة التى كانت تبعث الفزع فى نفوس الأطفال ، الشجرة المسحورة ، وبعد ذلك تأتى رائحة الماء والطين والضباب . وكان النسيم يهز أوراق الأشجار هزًا متصلا . وأخيراً بدأ طعم مالح يستقر على شفتيها . لقد وصلت إلى الماء . . .

— ستا ـ اف ! لورا ـ ا !

وكان أقل خطأ على طريق السدّ الضيق قد يصير خطراً ، ومع ذلك كانت تكاد تجرى يرافقها فى سيرها ، وبدون علم منها ، خفاشان . . . طيور الشؤم .

كان الناس يتجمعون فى أسفل السّد على الساحل الصغير المكون من الطين حول جسم لورا الملقى على الأرض ، وقد فارقت الحياة . وكان حارس الحقول يتكلم بصوت عالٍ .

وعلى الضوء الصغير المنبعث من مصباح مشعل بالغاز بدا الجسم صحيحاً سليما لا تورم فيه . وكان الشعر الأصفر الطويل منتشراً ومبتلاً يغطى وجه الصبية .

لم تستطع كاميلا زوجة الخباز إلا أن تقول :

— هذا شنيع ! هذا شنيع !

وأمامهم على الشاطئ المقابل كانت مداخن هوبوكن تقذف لهباً أحمر يفرقع فى الجو فتضىء السماء . وعلى النهر كان يمكن أن تتبين قارب دولف صياد الصدف ينساب خلال البخار المتصاعد من الماء . وكان رجلان يجدفان فى بطء ، على حين وقف دولف فى مقدمة قاربه ، مائلا نحو الماء ، وفى يده مصباح ، يبحث عن ستاف بين انعكاس الأضواء . وكانت بعض الطيور تطير قريباً من سطح الماء على الرغم من تقدم الليل .

لاحظ فيربلان :

— من حسن الحظ أنه لا يوجد تيّار هذا المساء .

هز حارس الحقول رأسه الضخم المنتفخ قائلا :

— فى هذه الساعة لا يتحرك الماء .

وكان كلب أسود الشعر ملطخ بالوحل يدور حول الجثة الصغيرة التى تجتذبه . فخلع فيربلان قبعته ، وتظاهر بتسديد المرمى نحوه لإطلاق الرصاص عليه .

— ابتعد أيها الحيوان القذر !

وابتعد الكلب متراجعاً .

قالت كاميلا زوجة الخباز :

— ما أسرع ما ردها الماء !

وكان « لويس المجنون الصغير » بائع الرمل الأبيض على شاطئ البحر منزوياً

فى ركن لا يجرؤ على الاقتراب مع شدة رغبته فى ذلك . فربما زجروه كما زجروا الكلب . وها هو ذا يشاهد لآخر مرة أجمل فتيات القرية ، هامدة لا حياة فيها ، مرتطمة فى الوحل . وقد ارتسمت على وجهه ضحكته التى لا تكشف عن أسنانه ، ضحكته الصامتة التى لا يمكن فهمها أو تفسيرها . وكان اللعاب يسيل من فمه دون أى خجل أو احتشام ، كما تسيل الدموع من عين غيره وهو يبكى . وكان اللعاب يسيل من فمه فى غير انقطاع ، يغمره الحزن ، حزن المجنون الذى ليس للعزاء إليه من سبيل .

فاقترحت سيسكا لاباى وكانت جالسة على كوم من الأحجار :

— والآن لنذهب إلى « الترنسفال » فنشرب قدحاً صغيراً . . . إنى ظمأى .

رأى حارس الحقول — ولم يكن مع ذلك من عاداته أن يرفض قدحاً صغيراً إلا نادراً — إن من الواجب عليه أن يقول لها ، دون كبير اقتناع على كل حال :

— حسبك ما بلغت من السكر !

فاحتجت سيسكا لاباى بحدّة :

— لست سَكْرى . لقد شربت أنت أكثر منى يا ذا الفم الأحمر .

وكان هذا اللقب الذى يطلق على حارس الحقول . وأخذ فيربلان يهتم بالموضوع ، فتدخّل فى الأمر قائلا :

— أنظرى قليلا . بعد برهة عند ما ينتهى كل شىء . . .

ثم صاح نحو الكلب الذى عاد يدور حول الفتاة :

— ابتعد !

وقالت سيسكا متزمتة :

— ومع ذلك فإنى ظمأى ، والحر شديد هذا المساء .

لاحظت لآسى العجوز .

— إن الأمر كذلك دائماً ، فجثث الغرقى تعود دائماً إلى منازلها .

وأخذ رجال المصنع ينضمون إلى الجمع على الساحل الصغير . وكانت تسمع مجاديف المنقذين وهى تضرب الماء ، وهيئة دولف ترتسم فى مقدمة القارب وهو يغمس المدرى . وكانت أصوات صادرة من القارب تصل إلى الشاطئ ، دون أن يستطاع تبيّن الألفاظ بوضوح .

ولم يكن أحب إلى فيربلان من أن يقصّ على كلٍ من القادمين ما رآه . . .

— رأيت كل شيء . . . كانت لورا تجرى على طريق السد . وقلت لنفسى : « ماذا بها الآن هذه المجنونة حتى تجرى على هذا النحو فى الليل ؟ » . فرأيت ستاف يجرى وراءها وينادى : « لورا ! لورا ! » . وكنا ذاهبين أنا وسيسكا لاباى نشرب قدحاً صغيراً فى « الترنسفال » ، وكان آخر قدح سنشربه . فقلت لنفسى : يا لعنة الله ! ماذا يصنعان ! وإذا هما يقتربان . فصحت : « ماذا يالورا ! ماذا يا ستاف ! » . وكانت تجرى أمامه دون أن تلتفت إلى الوراء مرة واحدة ، مسرعة فى جريها حتى إنه لم يستطع أن يلحقها .

فقاطعته سيسكا لاباى :

— وأنا أيضاً صحت .

عاد فيربلان قائلا :

— صحنا ، ولكنهما لم يسمعا شيئاً ، أو كانا يتكلفان ألا يسمعا شيئاً . وعند المطحن الصغير بالضبط توقفتْ وألقتْ بنفسها من أعلى السد . يا لله ! قلت لسيسكا : « إنها ستغرق » . أما هو فرأى ذلك وما زال مستمراً فى ندائه . ووقف فى نفس المكان الذى وقفت فيه وألقى بنفسه . . . فصحت « ماذا بك يا ستاف ! لعنة الله ! ماذا تصنع ؟ » . وماذا عساى أن أعمل وأنا لا أحسن السباحة ! طفت لورا ثلاث مرات على وجه الماء . اما ستاف فلم أره . لا بد أن يكون وصل إلى القاع فغرق للفور . قلت لسيسكا : اذهبي فابحثى عن دولف ، فأبت هذه القذرة .

صحّحت سيسكا قوله :

— يا فيربلان أنا طلبت منك الذهاب معى .

— قال فيربلان وهو يبصق قليلا من عصارة مضغته :

— إن قدميها ثقيلتان بعض الشيء هذا المساء . ذهبنا معاً لنداء دولف .

فقاطعه حارس الحقول فى شيء من اللوم :

— كنتما تستطيعان الإسراع أكثر من ذلك .

— لم يبق إلا أن يتدخل الآن ذو الفم الأحمر هذا ، وعسى أن يكون هذا التدخل ناشئاً عن خوذته الجديدة . لا شك أنه كان شارباً أكثر من الآخرين .

على أن فيربلان كان يبرّئ نفسه .

— لقد أسرعتُ يا حارس الحقول . وكنت مضطراً إلى أن أجرّها ، فانها لا تستطيع الوقوف على قدميها .

صاحت سيسكا وهى تنهض :

— ماذا ؟ انا استطيع الوقوف .

وكان الناس يهزءون بها . وختم فيربلان روايته عندئذ قائلا :

— أما هذا فكثير . . . يا للهول ! . . . كثير أن يغرق كلاهما . . .

قالت كاميلا زوجة الخباز :

— هذا شنيع .

أخذت لآسى العجوز تتكلم فى اندفاع مفاجئ :

— إنى أقول لكم إن هذا عقاب الله . فانه لم يأذن فى أن تستمر مثل هذه الفضيحة فى القرية ، وحسناً فعل . . . الأب والابنة معاً . . .

ورفعت ذراعيها السوداوين . . .

— . . . إنه سيعاقب جميع فتيات السوء فى القرية . وسيكون هذا مصير أوديليا ديفار هذه البغى . . .

— قال فيربلان وكان من المترددين على أوديليا فى « الأنكر » منذ مدة طويلة :

— سدّى حلقك أيتها الثرثارة الشمطاء !

أجابت لآسى العجوز :

— ليركب الشيطان عنقك ، وليقع كل هذا على رأسك وعلى رأس بنيك .

تدللت سيسكا قائلة :

— هيا بنا يا حارس الحقول ، لنذهب إلى « الترنسفال » لشرب قدح صغير.

أجاب حارس الحقول :

— ليس هذا وقت الشرب ، فعلىّ أن أؤدى واجبى .

— إذاً بعد قليل ؟ الجو حار يا حارس الحقول .

رآها « لويس — المجنون — الصغير » تغوص فى قاع الماء ، وتعود فتطفو على وجه الماء . كان يضحك ولعابه يسيل . وانفرج ثوبها الأبيض كأنه زهرة ضخمة من تلك الزهور التى تنبت على سطح الماء ، ثلاث مرات . . .

وقد انتهز الكلب الأسود فرصة عدم الانتباه فعاد واقترب من لورا فى لؤم . وكانت سيسكا لاباى مهتمة بتتبع حركاته . شمشم الكلب بحذر وهو يمد عنقه . وفجأة ألقى بنفسه جانباً كأن الفتاة تحركت .

فصاح فربلان :

— ابتعد !

وفى هذه اللحظة سمع صوت من القارب :

— هو — و !

أجاب حارس الحقول :

— هو — و !

— وجدنا — اه !

قال حارس الحقول للحاضرين :

— إنهم وجدوه .

همهمت كاميلا قائلة :

— هذا شنيع

أعلن الصبى الذى كان مع سيسكا لاباى ، واعتادت أن تصطحبه فى كل مكان ، واسمه جوست وقد مثل دور يوحنا المعمدان فى مهرجان القرية الأخير :

— هذه المرأة الضريرة قادمة .

وكان الأطفال الذين لم يعرفوا « مين » وهى محتفظة ببصرها يسمونها « المرأة الضريرة » . أما الكبار فاحتفظوا لها باسمها .

قالت كاميلا :

— نعم . . . هذه مين قادمة . هذا شنيع .

وكانت مين قد قطعت طريق المنحدر ، دون أن يعاونها أحد ، واتجهت مباشرة نحوهم رافعة عصاها ، ففسحوا لها المكان . وسألتهم فوراً :

— من هنا ؟

وكان الناس يخشون دائماً أن تقبض على أحدهم بين ذراعيها المبسوطتين ، فلا تتركه . وكانوا لا يحبون نظرها المعتم المتجه فوق الرءوس قليلا . وكان على حارس الحقول أن يتكلم ، فقال فى بساطة :

— الواقع أنها كارثة يا مين . ابنتك لورا ماتت .

وكانت مين قد علمت ذلك . تقدمت ، فارتطمت بجثة ابنتها ، وخارت رجلاها فسقطت بكل ثقلها على ركبتيها فى وحل الشاطىء . وأخذت تتعرف على لورا بكلتا يديها ، وهى تصعد بهما فى بطء حتى وصلت إلى وجهها .

قالت كاميلا زوجة الخباز متنهدة :

— يا ربى ! يا إلهى ! كأنها تراها .

أضاف حارس الحقول :

— زوجك ستاف مات أيضاً . ودولف يجىء به الآن .

وكانت مين تكشف عن وجه الميتة الشاحب بحركات رقيقة ملاطفة .

— قالت كاميلا :

— . . . رائعة الجمال كانها ملاك صغير .

وقد بدأت العينان تتخذان لون أعماق البحار . فخفضت مين جفنيها ثم أخذت تتحدث فى نغمة يائسة فاجعة :

— أما أنت يالورا الصغيرة ، فليس الذنب ذنبك . لقد قلت إنه يجب عليك أن تغرقى نفسك ، ولكنى لم أرد أن تفعلى ، يا أيتها الحلوة الصغيرة . . . كنت كلك نضارة ، كما كنت أنا من قبل . وأنا لم أكن عنده امرأة ، لأنى فقدت البصر . . .

وكانت كاميلا زوجة الخباز تشهق شهيقاً عالياً .

أمسكت مين بأحد أطراف ردائها ، وأخذت تمسح فى رفق ورقة ما على الجبين والخدين من ماء وقذر .

— . . . إنه كان يراك دائماً ، وكان يشتهى . أصبح لا يستطيع أن يقاوم نفسه . وكنت ألح عليه : « اتركها ! اتركها يا ستاف ! إنها ابنتنا لورا ! إنها محرمة عليك . وأنت لم تكونى تستطيعين أن تقولى شيئاً ، لأنه كان أباك . ومنذ اقترف ذلك كان الوسواس ينخر قلبه . أنا أعلم ذلك . لم يكن ينام الليل بل كان يقضيه مستلقياً على ظهره فاتحاً عينيه . . .

لم يعتد القوم مثل هذا الإسراف . وكانوا يتمنون أن يوضع حد لهذا المنظر . وعلى الشاطىء المقابل أمامهم كانت عاصفة تتكوم فوق هوبوكن ، وكانت ألسنة النيران المندلعة من المداخن تصبغ السماء بلون أحمر . وأراد فيربلان أن يقص مرة أخرى كيف حدث كل ذلك :

— رأيت كل شىء . . .

صاح حارس الحقول :

— والآن هذا ستاف

وبالفعل كان القارب يرسو . وحمل صيادو الصدف جثة الغريق ووضعوها إلى جانب لورا .

قال أحدهم :

— أما هذا فثقيل الحمل .

وقال دولف ، وكان يريد أن يحظى بشيء من الالتفات أكثر مما وجه إليه :

— كان الأمر شاقاً . إنما أنا عند ما يقال لى أين سقط الشخص ، ألتقطه دائماً .

فوافقه حارس الحقول قائلا :

— لا شك فى ذلك ، فأنت تلتقطه دائماً .

لبثت مين لا تنبس بكلمة . وفجأة انفجرت لآسى العجوز :

— لا ينبغى أن يكون هنا هذا الرجل ! فأنا لا أطيق رؤية هذا المنظر ، يا إلهى ! يا ربى ! الأب والابنة . . .

فتدخل فيربلان ناصحاً :

— سدى حلقك أيتها الثرثارة .

— لن أسكت ! فهذا عقاب الله . لن يُمنحا المسحة الكنسية الأخيرة . فلن يحضر سيدنا القسيس بصليبه . إنهما لعينان ! كلاهما . وينبغى أن يدفنا فى قطعة أرض بعيدة ، لا فى مدافن المسيحيين .

وكان حارس الحقول يحاول تهدئتها :

— ماذا بك يا لآسى . . . ماذا بك . . .

فدمدمت قائلة :

— أنا ذاهبة الآن ، وقد قلت كل شيء .

فأصدر حارس الحقول أوامره :

— هيا بنا أيها الرجال . سنحملهما إلى المنزل قبل أن تحل العاصفة ، قومى يا مين ، إلى الأمام !

وأخذ الموكب يسير . وفى السماء خلال السحب كانت بعض النجوم تتألق للورا الصغيرة .

وكان دولف وأحد صيادى الصدف يتقدمان الموكب حاملين ستاف ، وكان عليهما أن يتسلقا منحدر السد . وكانت تليهما لورا ، وما أخف وزنها ، يحمل رجليها

ورأسها حارس الحقول والصياد الآخر . وفقد حارس الحقول خوذته الجديدة الجميلة أثناء الصعود . وكان فيربلان يضيء الطريق بالمصباح . لم تكن المسافة طويلة . وكانت كاميلا قد أخذت مين من ذراعها ، والقوم يتبعونهم « لويس — المجنون — الصغير » بخطوته اللاصقة فى الأرض كأنه يجرّ عالماً وراءه ، والكلب ، وقد كان وجلا منكمشاً على نفسه . وكان الماء يقطر من الجثتين تاركا شرشرة داكنة على طريق السد الضيق ، كأنها كانت دماً .

وعند ما مرّوا أمام المطحن الصغير لم يستطع فيربلان أن يمنع نفسه من أن يلاحظ :

— هذا هو المكان الذى رأيتهما يثبان منه .

بعد المستنقع تركتهم سيسكا لاباى واتجهت نحو اليسار فى طريقها إلى « الترنسفال » . وبما أنه لم يقبل أحد الذهاب معها فقد قررت الذهاب وحدها إلى « الترنسفال » وكانت ترجو أن تجد فيه صديقتها مى جامبون .

بدأت بضع قطرات من المطر تتساقط ، ولن يمضى إلا وقت ضئيل حتى تنقضّ العاصفة على القرية .

عند ما وصلوا إلى المنزل دعا حارس الحقول الناس إلى العودة إلى بيوتهم . ودخل الحمالون فوضعوا الثّقلين جنباً لجنب على السرير الذى ما زال محتفظاً ببعض الدفء .

وعرضت كاميلا الطيبة خدماتها :

— أتريدين أن أبقى معك للسهر ؟

أجابت مين :

— لا يا كاميلا ، أنت طيبة جدًّا ، ولكنى لست محتاجة إلى أحد .

— سأشعل المصباح

— لا

— وهو كذلك . إلى الغد يامين . سأذهب فى الصباح لأحضر مينا للتغسيل .

وخرجوا جميعاً . أمّا فيربلان وحارس الحقول ، وقد تصافيا ، فذهبا للبحث عن سيسكا لاباى . والكلب التائه استلقى عند مدخل الباب ، و « لويس المجنون الصغير » أخذ يتجه نحو شاطىء البحر حيث عشته .

أرادت مين أن تبقى وحدها . ولم تكن عيناها تذرفان الدمع . جلست إلى

جانب السرير للسهر على فقيديها . ازداد المطر وكان وقعه على قراميد السطح يغطى غمغمة الكرب والأسى المنبعثة من الظلام . وكانت يدها تداعب شعر لورا ، الشعر الجميل الذى أخذ يجف ، وما زال لزجاً عند اللمس . وكانت مين فيما مضى تصفف هذا الشعر على شكل بديع أيام الآحاد قبل الذهاب إلى الكنيسة . وكانت حبات من الرمل تنزلق تحت أصابعها . وفى الخارج كان الكلب ينبح نباح الموت . وتذكرت يوم أن تناولت لورا أول مناولة ، وكانت هى لا تزال مبصرة ، وبدت لورا فى ثوبها الأبيض كأنها عروس صغيرة . كان الجميع يقولون ذلك . ولم يرض لها ستاف أن تشتغل فى مصنع الأسمدة الصناعية مع بقية الفتيات ، فقد كان يراها أجمل من أن تقوم بهذا العمل . . . كلا الجسمين تنبعث منه رائحة الماء والوحل . . . ولقد قالت لآسى العجوز : لن يقام لهما قداس ، ولن يحضر سيدنا القسيس ومعه صليب الموتى . كان المطر يزداد شدة .

اتخذ وجه كل من ستاف ولورا ، على الوسادة ، شكله الأبدى . وقد ذهبا الآن معاً ، كلاهما . أما هى فبقيت وحدها فى الليل الداكن .

كان هذا عقاب الله .

إن الله لا نفهم حكمته دائماً فقد أراد أن يكفّ بصرها ، وأن ينصرف عنها ستاف رجلها أيام يمسّ الأب ابنته . ثم بعد ذلك غضب غضباً شديداً وعاقبهما كليهما . . . بل ثلاثتهم . الشر مثل الخير ، هو الذى يصنعه ، لماذا ؟ فصاحت متجهة إلى عل :

— ليس هذا عدلا ، ليس هذا عدلا .

لم يكن عدلا أن يكون لها عينان لا تستعملان إلا لذرف الدموع . لم يكن عدلا أن تموت الصبية قبل أمها .

ملأ وميض برق الغرفة بضوئه ، فى حين كانت مين تسب وتثور على الله وعندئذ سُمع دوى رعد هز الجدران وأرض المنزل .

— يا إلهى ! يا ربى !

إنها كانت تراه . الرب الرهيب لإقليم الفلاندر ، يشع فى جلال جبروته العظيم ، جالساً على عرش مجد من السحاب ، وقاذفاً بكلتا يديه الصاعقة على المنزل الضعيف الذى به الخاطئان .

كادت تشك فى عدالة الله . إلا أن المصباح المعدنى المعلق فى السقف ما زال

يضطرب . فكل ما يقضيه الله خير . وإلى الله فى هذا الوقت أكثر من أى وقت آخر أن يهديها فى وحدتها . وأخذت مين تقرأ صلاة الأموات :

« يا ربى امنحهما هدوءاً أبديًا ، وليمنحهما نورك الأبدى . . . »

عند مدخل الباب كان الكلب ينبح . لن تطول العاصفة ، وستمر بسرعه .

أما الجسمان فستقيم لهما مين بما جمعت من مال ضئيل قبرين متجاورين عليهما شاهدان متشابهان ، فى نهاية المدفن الصغير ، بعيداً عن بقية القبور . وعن قريب ستلحق بهما وتثوى بجانبهما . أما الأرواح . . . فان أرواح المنتحرين تهيم حول منازلهم إلى الأبد . ولكن الله سيصفح عنهما ذات يوم . سيرثى لما بهما من بؤس وشقاء . ألم تصفح هى نفسها ، مين ؟

هنرى كابه

قلها عن الفرنسية دكتور توفيق شحاته